

والفعلان الاخيران أولهما مبنى للمعلوم والثاني للمجهول . فافهم معنى أيها
القارئ من ذا الذي يراعى ما استطاع والكلام في صدر البيت لمخاطب وفي عجزه
لغائب ؟ وكيف تحبوه بنت عمه شعاعاً ؟ وما هو المعنى المقصود ؟
على اننى لا اكذب القارئ فقد تعثرت في هذه القصة حتى عجزت عن
اتمامها ولم أعجز قبل اليوم عن اتمام كتاب بدأت في قراءته فمعدرة اذا وقفت بالنقد
عن هذا الحد فذلك كاف ، ولعل شاعر الشباب الاول لا يفض ورهطه علينا
غضبة مضرية ، الا أن يكون من أثرها أن يخرج لنا شيئاً يقرأ . فاذا كان هذا
فليغضب ما يشاء وكيف شاء « ناقد »

الانتحار كمؤثر اجتماعي

مراجعات عن الاستاذ جورج شرتون هيل

١ — العلامة جورج شرتون هيل مؤلف انجائزى ذا الرصيت في عالم الاجتماع
ويعتبر كتابه « الوارثة والانتخاب في النظام الاجتماعى » حلقة من تلك الحلقات
الكثيرة التى طبق بها متأخرو العلماء مذهب العلامة شارلز روبرت داروين على
فروع العلوم الحديثة . وما رأيت فى مجموعة الكتب التى أسعدنى الحظ بالعثور
عليها من مؤلفات الانجليزى فى تطبيق مذهب داروين على النظام الاجتماعى امتع
من ثلاثة كتب : أولها — كتاب سبنسر « مبادئ النظام الاجتماعى » وهو يعتبر
أول رائد لهذا الميدان انفسيح . وثانيها — كتاب « التطور الاجتماعى » للاستاذ
الكبير بنيامين كيد . وثالثها — كتاب شرتون هيل الذى نحن بصددده الآن .
ولا أنسى أن أنبه القارئ الى كتاب آخر للعلامة كيد هو فى الواقع متمم لكتابه
التطور الاجتماعى . ذلك كتاب « علم القوة » الذى نشر بعد كتابه الأول
بزمان قصير .

على أن الفرق بين هؤلاء المؤلفين الثلاث ينحصر فى وجهة النظر التى انتحاهها
كل منهم فى علم الوراثة . أما العلامة سبنسر فالظاهر من كل ما كتب أنه مضى

معتنقاً بمذهب داروين في الوراثة المعروف في عالم البحث بمذهب « وحدة التناسل »
 فان أول مذهب عمل في الوراثة لم يدع إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، عندما
 كان سبنسر في شيخوخته منقطعاً عن العمل العلمي . هذا المذهب هو مذهب
 غريغور جوهان فون مندل . ومن الثابت أن مندل لم يشتغل بالوراثة الا بين عامي
 ١٨٤٧ — ١٨٦٨ ، ولم يدع مذهبه إلا بعد ذلك بفترة من الزمان . أما الاستاذ
 بنيامين كيد فلست تعرف من كل ما كتب أي المذاهب في الوراثة يعتنق ، ذلك
 لانه أخذ في تطبيق مذهب النشوء من غير أن يعير مسألة الوراثة انتباها . بل
 مضى يطبق القواعد التي وضعها داروين في كتابه « أصل الأنواع » على وجهة
 نظره في الاجتماع من غير أن يناقش قواعد داروين أو يناقش شيئاً من مكملاتها
 التي تناولتها الابحاث الحديثة من بعده . أما « جورج شترتون هيل » فانه من
 مؤيدي مذهب « ويزمان » في الوراثة القائل بالبلاسا الجرثومية . وهو مذهب قريب
 الصلة جداً بمذهب داروين في وحدة التناسل .

ونيس من شأننا أن نشرح المذاهب المختلفة في الوراثة ، بل إننا لم نقدم بهذه
 المقدمة إلا لتعرف الباحث شيئاً من المبادئ التي انتحها ثلاثة من كتاب العصر
 الحديث لدى نظرهم في الاجتماع من ناحية النشوء والارتقاء . لهذا نمضي في
 الكلام في الانتحار كمؤثر اجتماعي تايخيصاً ونقداً عن العلامة شترتون هيل .
 على أني قد شرحت مذاهب الوراثة الحديثة شرحاً موجزاً في كتابي « ملقى السبيل »
 الذي ظهر منذ زمان وجيز فليرجع اليه من أراد . غير أني لا أود أن تمر هذه
 الفرصة دون التنوية بكتابين آخرين لهما بتطبيق مذهب النشوء على علم الاجتماع
 أكبر آصرة . هما كتاب العلامة وولتر بيجهوت « الطبيعيات والسياسة » وكتاب
 البرنس كروبوتكين « التعاون المتبادل كعامل نشوئي » فان هذين الكتابين رغم
 صغر حجمهما ، قد أديا للعلم النشوئي أكبر خدمة عرفها العلماء في أوائل القرن
 العشرين ونهاية القرن التاسع عشر

قسم العلامة « شترتون هيل » كتابه « الوراثة والانتخاب في النظام الاجتماعي »
 الى ثلاثة أشر : خص الشر الاول منها بالكلام في « نظرية تسلسل الانسان
 وأصله » وخص الشر الثاني بالكلام في « الباثولوجيا الاجتماعية » ويعني بذلك

« تحليل الأمراض الاجتماعية » والبحث في أسبابها ونتائجها . وخص الشطر الثالث بالكلام في « الحالات الواقعية في الانتخاب الطبيعي » . أما السبب الذي حدى بنا الى تخصيص الكلام والبحث في ناحية معينة من نواحي الشطر الثانى من الكتاب فراجع الى أننا انتقينا من الكتاب أسهل أجزائه لنبدأ بها أولاً ، ولأن ذلك الجزء من الكتاب هو الذى يهم جمهور القراء ثانياً .

وكان من الواجب علينا أن لانمضى فى هذه المراجعات قبل أن نلم بطرف موجز فى تاريخ الفكرة فى الانتحار . فان كثيراً من الفلاسفة الأقدمين قد تناولوا هذه الظاهرة الاجتماعية بتأملات فلسفية أخذت تنتقل مع الزمان من شعب الى شعب ومن مدرسة الى أخرى ، حتى أسلم بها القدر الى الرواقين فى تصور المدنية الرومانية ، وهناك ازدهرت الفكرة فى الانتحار ، حتى لقد أجازها أكثر الفلاسفة الرواقيين فى روما على قاعدة أن الانسان حر فى أن يتصرف فى حياته التى هى ملكه وحده . وما وصلوا الى هذا الحد القصى من التطرف الا مسaire لمقتضى فكرتهم الاصلية فى حرية الاختيار . غير أننا إذا أردنا أن نلم بهذه الآراء اجمالاً أو تفصيلاً فى هذا الموطن ، تورطنا الى الكلام فى أشياء ليس هذا موضعها . ولعلنا نستطيع العودة الى الكلام فيها بعد أن تفرغ مما تصدينا له من البحث .

بدأ شرتون هيل كتابه بالكلام فى الحقائق التى يقوم عليها علم الوراثة ومذهب الانتخاب ، بانياً أبحاثه على المستكشفات الحديثة فى علم الحياة ، وبالجملة على ما كشف لويزمان من الحقائق العلمية فى مذهبه المعروف فى البلاسا الجرثومية .

ولقد أظهر بما لا يحتمل الشك أو الريب أن أبحاث — البيولوجيا — علم الحياة تنزع آناً بعد آن الى الاعتماد على مذهب الانتخاب باعتباره نظاماً من النظم المؤثرة فى النشوء العضوى وغير العضوى . وهو يعتقد بان للعلامة ويزمان من الأثر فى تحديد التصور العلمى القائم من حول مذهب الانتخاب مالا يقل عن أثر العلامة داروين فى وضع هذا المذهب العظيم . لأن داروين ان كان قد طبق مذهب الانتخاب على الانواع الحية ، وأثبت أنه من أبين العوامل فى نشوئها وتطورها فان ويزمان قد أثبت بأبحاثه أن الانتخاب لا يقتصر أثره على الانواع اذ هى تتكون من أفراد ، بل يتناول بتأثيره الكبير تلك الدقائق الاولى البسيطة الكائنة فى

البلاسم الجراثومية التي يتكون منها كل فرد من الافراد . ولقد أظهرنا من بعد ذلك على أن للوراثة والانتخاب فلسفة علميا ، أبين من فلسفة التطبيق الطبيعى . أثرأ وأشد فعلا . فان هذين المبدأين على الرغم من أنهما يريانا أن هنالك معركة من التناحر على البقاء مستمرة الفعل دائماً التأثير ، فأنهما قد أثبتا لنا عملياً أن أى كائن عضوى لا يمكن أن يحتفظ ببقائه فى الحياة نازعا الى درجة عليا من درجات النشوء الا اذا تعرض خلال حياته لمؤثرات الانتخاب على قوتها وحدتها . فاذا أثرت حالات ما فى كائن عضوى تأثيراً جعله يفر من معركة التناحر على الحياة ، وبالتبعية لذلك يفر من الميدان الذى تؤثر فيه نواميس الانتخاب ، فما لاشك فيه أن ذلك الكائن ينزل إلى درجة هى لدى الواقع أحط من الدرجة التى يبلغ فيها النشوء اقصى مبالغه ، تلك الدرجة التى لا بد من أن يصل اليها إذا ما ظل خاضعاً لمؤثرات تلك النواميس . ولما كان التراجع معناه فى الطبيعة الفساد والانحلال بتأثير الحالات القائمة فى عالم الحياة ، فان هذا النكوص الذى تنكصه بعض الافراد لا يكون له من معنى ، اللهم إلا الانقرض التام فى النهاية .

أما إثبات ما أتى به العلامة «هيل» من رأى وتحقيق أنه مطابق لما يقع فى الطبيعة تماما ، فظاهر جلى اذا وعينا مجمل الحالات التى تنشأ تحت تأثيرها صور التطور العضوى فى جملتها . ولقد أثبت المؤلف فى الفصل الأول من كتابه أن للنشوء أربعة عوامل كبرى تحكم فى كل ما يوجد فى الطبيعة العضوية من صور النشوء : الاول قابلية التغير ، والثانى الوراثة ، والثالث الخصب فى الانتاج لاكثر من حد الكفاية ، والرابع بقاء الاصلح بتأثير الانتخات .

من الظاهر أن سنة بقاء الاصلح تتضمن بالضرورة فكرة الخصب فى الانتاج لا بعد من حد الكفاية . لأنه إذا تهيأت للاحياء فرصة وجود المكان الذى يسعها والغذاء الذى يكفيها إلى درجة يتسنى معها لسكل العضويات التى تولد أن تعيش فى دعة وسلام ، فما لاربية فيه أن معركة التناحر على البقاء تضع أوزارها ، وبذلك لا يكون فى الطبيعة من هو صالح أو من هو أقل صلاحية للبقاء من غيره ، مادامت مطالب الحياة فوق حاجة الجميع . أما إذا نتج مائة من الافراد فى بيئة لا يسع فرائدها ، ولا يعضد غذاؤها ، أكثر من خمسين فرداً ، فان الخمسين فرداً الباقية لأبد من أن ينتابها الهلاك ويمضى بها القدم . أما الخمسون فرداً التى يقدر لها

البقاء فانها لا تبقى إلا لانها أقدر من الخمسين التي تفنى على مجالدة الاعاصير ،
أو لأنها أمتن بنية أو أنسب تركيباً من حيث الكفاية الطبيعية للبقاء . وكما أن
الحال على ما وصفنا بين الافراد التي ينتجها نوع بعينه ، فهي كذلك بين السلالات
التابعة لأنواع مختلفة ، أو بين الأنواع المتباينة المستقل بعضها عن بعض
استقلالاً نسبياً .

ان القاعدة الطبيعية هي أن ينتج من الافراد عدداً زائداً عما يستطيع البقاء ،
ولا يبقى من الافراد إلا من يتفوق على غيره بطريقة من الطرق أو وسيلة من
الوسائل . غير أن هذا التفوق لا يضابط له ولا مهية إلا التناحر على البقاء ، بل
أنه لا طريق لتفوق فرد على فرد أو فريق على فريق الا طريق التناحر . فكل
تباين من التباينات التي تكون مفيدة لتفوق نوع وبقائه ، تنتجها الطبيعة ليبقى
في الحياة ولتورث صفاته في أعقابه . في حين أن هذا التباين نفسه لا تسمح الطبيعة
له بالبقاء الا اذا ظل مؤدياً فائدة ما للنوع الذي يلتحق به . وليس لهذه النظرية من
معنى الا أن نقول ان النوع مادام باقياً في بيئة بعينها متأثراً بحالات واحدة ، ومادام
محوطاً بظروف غير متغيرة ، فان هذا التباين الذي يستحدث فيه يبقى ثابتاً غير
متغير . لان كل تباين يحدث في نوع من الانواع ، يتضمن بالضرورة فكرة
المكافأة بين النوع وبين البيئة التي تحيط به ، كما يتضمن فكرة أن كل فرد من
أفراد النوع الذي لا يحوز مثل هذا التباين لا بد من أن يهلك ويفنى ، لانه لا يكون
كفوئاً للبقاء في البيئة التي تحيط به .

لنرجع بعد هذا إلى مسألة أخرى ، ولنخرج بالنوع عن بيئته الطبيعية ومحيطه
الاصلي ولنضعه تحت أو اصر بيئة اصطناعية مفتعلة . أما النوع فمن الجائز أن
يبقى ويمتد بالحياة ، غير أنه لا يمكن أن يبقى الا اذا حمى من الهلاك صناعياً .
فان اخراج نوع من بيئته الطبيعية ليس له من معنى إلا الفساد والانحلال المحتوم .
في حين أن مركزه الذي يخلو باخراجه من البيئة تحتله غيره من الانواع التي هي
اكثر منه قوة وأبعد منه غلبة ، لانها من بنات الطبيعة ، اكبر معاهد التربية
وأصلحها لنشوء الغالبين .

بذلك نرى أن الحياة العضوية اذا ما خرجت عن بيئة الطبيعة التي هي مباءتها
الاصلية ، انما تنزع إلى النكوص عن المثل الاعلى الذي تكون قد بلغت تحت

تأثير تلك البيئة وحالاتها المشعبة . لهذا يجب علينا بل يتحتم ، وقد أزمعنا أن تطبق نواميس الانتخاب على النوع الانساني ، أن نبحث فيما اذا كانت الحالات التي يتأثر بها تطور هذا النوع ونشوءه ويخضع لها في أرقى صور التقدم ، هي بذاتها حالات تلائم سريان تلك النواميس ولا تصد القوى الطبيعية عن أن تتجه في سمتها المرسوم لتصل إلى غاياتها ؟ أو بطريقة أخرى ، لنرى هل المدنية الغربية قد اتبعت في نشوئها طريقاً من شأنه أن يحفظ على الانسانية مثل الكفاية العليا والمقدرة الفائقة التي لا غناء عنها في استحداث أرقى الصور التي يجب أن تبلغ إليها السلالات البشرية من الناحيتين الطبيعية والادبية ؟

إذا دخلنا عالم الانسان فان مشكلة الانتخاب تواجهنا في صورة لم نألّفها من قبل عندما طبقناها على غير الانسان من صور الحياة العضوية . فان الانتخاب في غير الانسان من الانواع الحية انما يرمى — اذا سمح لنا أن ننسب إلى هذا الناموس صفات غائية في اللغة — إلى أن يبلغ بالنوع حد الكفاءة المستطاع بيولوجياً — أي من الوجهة الحيوية . في حين أن النوع الانساني انما يرمى إلى أن يبلغ به حد الكفاية اجتماعياً . ولا يقصد بالكفاية الاجتماعية بلوغ المثل الاعلى في العقلية وحدها . فان طبيعة الانسان الانفعالية ، والفنون التي هي لدى الواقع أبلغ ما يعبر لنا عن طبيعته هذه ، وعواطفه الادبية ، عامة هذه الاشياء تتكاتف معاً لتقيم ذلك البناء المشعر الذي ندعوه « صرح الانسانية الاجتماعية » فان السلالة الهندية الحمراء من الوجهة الحيوية أكبر كفاءة وأصلح للبقاء من السلالة البيضاء . غير أن الصفات الاجتماعية التي تتصف بها السلالة البيضاء قد أهلت بها لان تخرج من معمعة التناحر منتصرة غالبية . وكذلك الحال في المدنية الغربية فان الكفاءة البيولوجية — الحيوية — في أفراد أية من الجماعات المتمدنية ، قليلة القيمة اذا قيست بالصفات الادبية . أما نشوء المعاهد والنظم التي كان نتيجة للتطور الاجتماعي الذي ظل شديد الاثر في الجماعات طوال قرون عديدة متعاقبة ، فذلك ما يفخر به أهل الغرب ، وذلك ماله في اعتبار أهله أغلى القيم وأثمنها .

على أن العلامة شرتون هيل لم يفصل الكلام في الكفاية الطبيعية التي حازها

أهل الغرب ممثلو المدنية في العصر الحاضر ، فانه أشبع البحث فيها في فصول كثيرة من كتابه القيم . غير أنه إذ تناول موضوع الانتحار كمؤثر اجتماعي ، قد اضطر بطبيعة الحال إلى أن يرجىء الكلام في هذا الموضوع ، وأن يعكف على البحث في ظاهرة الانتحار ليستطيع من طريق هذا البحث أن يحكم في ناحية من نواحي النشوء التي خطت فيها المدنية الحديثة في القرن العشرين ، وهل هي تصد سير الطبيعة عن التأثير في الحالات الاجتماعية ، أم أنها تسايرها ؟ وفي الانتخاب هل هو معطل الفعل في حالات الاجتماع تحت تأثير المدنية ، أم أن له الأثر البالغ في نشوء الجماعات وتطورها في العصر الحاضر كما كان في الأزمان الفارطة ؟ هذا ما يتضمنه البحث الذي نسوق الكلام فيه الآن .

إن الذين لم يعتادوا طرق البحث التحليلي في التطبيق الاجتماعي يشكون كل الشك في أن ظاهرة الانتحار مشكلة من المشاكل التي يجب أن يعنى بها الاجتماعيون . أما الرأي السائد فقاصر على الاعتقاد بأن الانتحار ظاهرة فردية صرفة ، لا تقع إلا حيث تكون حالات من الضعف الباثولوجي — المرضى — يتناول المجموع العصبي . والاستاذ شرتون هيل أبعد الباحثين عن أن ينكر على النيورولوجيين — أطباء الحالات العصبية والباحثين في خصائصها — حقهم في أن يبحثوا ظاهرة الانتحار من ناحيتها العصبية المحضة والأمراض التي تنتاب المجموع العصبي . غير أنه يعتقد بأن هذه الظاهرة يمكن بحثها من ناحية مختلفة عن هذه تمام الاختلاف ، وبوجهة من النظر مغايرة لهذه تمام المغايرة . ومن أجل أن تبحث هذه الظاهرة من الناحية الاجتماعية يعتقد الاستاذ هيل أنه من الواجب على الباحث أن يخلى ذهنه تماماً من مسألة الميول الطبيعية التي تقصر الفرد على أن يكون ما هو ، وأن يعكف الباحث على الإحصائيات التي تجمع عن حالات الانتحار والتي تذيبها مثلاً جمعية من الجمعيات العلمية في وقت خاص . فان الباحثين في الحالات الاجتماعية لم يعيروا البحث في الانتحار على اعتبار أنه ظاهرة اجتماعية مجملة ، بعيداً عن ظواهرها الفردية ، من الانتباه والبحث إلا قليلاً . ولم يتجه البحث في هذه الظاهرة من هذه الوجهة إلا حديثاً ، حيث عكف عليه أعلام من أمثال أوتنجن ومورسيلي وليجويت ومازاريك ووستكوت وماير ، ومن بعدهم

دور كيم. الأستاذ الأكبر في جامعة باريس والذي أخذ عنه الأستاذ هيل أكثر ما اعتمد عليه من الإحصائيات .

حتى ذلك العهد الذي بدأ فيه أبحاث هؤلاء الاعلام وعلى الأخص دور كيم ، كان الباحثون يعتقدون بأن ظاهرة الانتحار ظاهرة فردية صرفة ولا علاقة لها بالحمالات الاجتماعية على إطلاق القول . حتى لقد حضر جهد الباحثين في أن يبحثوا كل حالة خاصة من حالات الانتحار راجعين بها الى حالة خاصة من حالات الميول والقواسر الطبيعية التي كان يتصف بها الفرد ، من غير أن يفكروا ساعة واحدة في العودة بالبحث في الانتحار على اعتبار أنه ظاهرة ضلالية اجتماعية . وعلى الجملة نقول بأن الانتحار قد اعتبر حالة من حالات الباثولوجيا الفردية ، وبمعنى آخر قد اعتبر مرضاً فردياً ، ولم يعن أحد ببحثه على اعتبار أنه من ظاهرات الباثولوجيا الاجتماعية .

أما الأسباب التي حملت كثيراً من الاجتماعيين على أن يهملوا البحث من الناحية الاجتماعية في ظاهرة الانتحار ، فيرجعها الأستاذ شترتون هيل إلى أصل واحد منه استمدت . وهذا الأصل هو فكرة أن الفرد إنما هو أساس الجماعة ، وأن النشوء الاجتماعي في أخص مظاهره هو لدى الواقع عبارة عن نشوء الأفراد الذين يكونون الجماعة . أو بعبارة أخرى ان الجماعة ما دامت مجموعاً من الأفراد ، فإن النواميس التي تحكم في نشوء الحياة الفردية لا بد من أن تكون بذاتها النواميس التي تحكم في نشوء الحياة الاجتماعية .

ولقد وضع العلامة مسيو تارد الفرنسي إحدى هذه النظريات التي أطلعت التطور الاجتماعي على أساس التطور الفردي . أما مسيو تارد ، كما يعرف كل علماء الاجتماع ، فذلك الباحث الذي يعتقد بأن المحاكاة — أي التقليد — هي الصفة الأساسية في كل مظاهر الحياة الاجتماعية .

يقول تارد :

« غير مستطاع بأية حال من الأحوال إذا ملو لخصا علم الاجتماع الانساني والحياة الاجتماعية أن تنبع من قواسر المحاكاة . فنضطر إلى محاكاة الغير في كل خطوة من خطواتنا وفي كل فعل نأتي به بل وفي كل ما نفكر فيه . ما لم يقع في سبيلنا ما يحولنا نستحدث جديداً وهذا نادر الوقوع . ويحتمل إذا استطعنا أن

نستحدث ونبدع فإن في مستطاعنا أن نثبت أن أكبر ناحية من مستحدثاتنا ،
هى لدى الواقع تأليف بين أصول أو أمثلة قديمة ، وأن هذه المستحدثات تظل
مهجورة وفي جفوة عن عالم الاجتماع ، ما لم تقلد ويحاكيها الناس . فانك في العصر
الحاضر لا تنطق بكلمة واحدة ليست في حقيقتها وأصلها اشتقاق من مقاطع صوتية
يمكن الرجوع بها إلى الماضي القصي البعيد ، ولو انك غير شاعر بذلك في العصر
الحاضر ، ولكنك كنت تشعر تماماً بهذه الحقيقة في العصور الاولى . بل انك
لا تنطق بهذه الكلمة إلا على صورة تحاكي بها محيطك الذي يحيط بك وبيئتك
التي تحويك . ثم أنك لا تقوم بشيء من مراسم دينك سواء أرسمت علامة
الصليب أم سجدت لا يقوّة أم صليت ، إلا وتكون قد عدت إلى مراسيم تقليدية
ورثتها عن الأزمان الغابرة ، لم يكن لأسلافك أقل أثر في اختراعها ووضعها على
ما وصلت إليك . ثم أنك لا تنفذ أى أمر سواء أكان أمراً عسكرياً أم مدنياً
إلا وأنت خاضع لدى الواقع إلى أفعال وحركات ورثتها لتقوم بوظيفك من طريق
المحاكاة . وكذلك الحال إذا كنت مصوراً أو شاعراً فانك لا تخط بريشتك شيئاً
أو تكتب حرفاً إلا وأنت خاضع لما ألزمتك به مدرستك التي أنشأتك ، أو
بالأحرى نشأت فيها . أما قوة الابتكار فيك فعبارة عن أشياء مستجدة من مواد
أولية ، ولا بد من أن تصبح بذاتها مواداً أولية يستجملها غيرك على مدى الأزمان .
هذا رأى العلامة تارد . أما شترتون هيل فينقده من بعض نواحيه ويقرر
بعضها . نبقى على ذلك إلى ما سوف نكتب في المحاكاة وأثرها الاجتماعي خلال
هذا البحث .

